

## قراءة جديدة للمسألة الشرقية

شفيق محسن \*

من بين كل القضايا الشائكة في العصر الحديث، تبقى المسألة الشرقية القضية الأكثر أهمية، والأكثر تعقيداً والأكثر ثباتاً. فمنها انبثقت المسألة الأكثر استعصاءً على الحل، ونقصد بها قضية الشرق الأوسط، المفتوحة على كل الاحتمالات.

يعني الشرق بشكل عام بالنسبة لأوروبا الغربية، الأجزاء الشرقية من القارة القديمة. وخلال القرن التاسع عشر وحتى عشية الحرب العالمية الأولى، حين ظهرت في جنوبي شرقي أوروبا مشاكل معقدة حول المسألة الشرقية، جرت العادة على تسمية بلدان شبه الجزيرة البلقانية، سواء تلك التي كانت لا تزال خاضعة للإمبراطورية العثمانية أو تلك المنضوية في دول مستقلة، ببلدان الشرق الأدنى. الشرق الأدنى كان إذا الشرق الأوروبي(1). وعندما نشأت أزمات خاصة ومحددة في الأقاليم الآسيوية جرت العادة على تحديد موضع هذه الأزمات، بما سمي حينها بالشرق الأوسط، أي المنطقة الآسيوية الممتدة ما بين البحر الأبيض المتوسط، البحر الأحمر، بحر عُمان والخليج العربي(2). أما مصطلح الشرق الأقصى فقد أطلق ولا يزال يطلق حتى يومنا هذا على الشرق الآسيوي، يعني سيبيريا الشرقية، الصين، الهند الصينية واليابان. أما اليوم وقد أصبحت تركيا دولة آسيوية بشكل أساسي، وتعبير الشرق الأدنى لم يعد يطلق على بلدان أوروبا الشرقية، كما كان الوضع قبل عام 1914م، فقد أصبح التعبيران: الشرق الأوسط والشرق الأدنى، يعبران عن ذات البلدان: العراق، تركيا، إيران، السعودية، الكويت، دول الخليج العربي، لبنان، سوريا، مصر وإسرائيل. أما الغرب، فهو يعني، بالنسبة للشرق، أوروبا الغربية، الإمبراطورية الرومانية الغربية، إحدى الإمبراطوريات الناجمة عن تقسيم الإمبراطورية الرومانية، التي دامت بين عامي 364 و476م، عادت وتوحدت مع شارلمان عام 800م، وبقيت بشكل أو بآخر مفككة حتى العام 962م، حين توحدت في الإمبراطورية الجرمانية المقدسة، التي تفككت عام 1806. الغرب يعني اليوم، أوروبا الغربية، إضافة إلى أميركا الشمالية، ولحد ما أمريكا الجنوبية، إضافة إلى استراليا ونيوزيلندا(3).

### تعريف المسألة الشرقية:

عُرفت المسألة الشرقية بشكل عام كنتيجة لانهايار الإمبراطورية العثمانية، التي وجدت نفسها ابتداء من القرن التاسع عشر تتعرض للهجوم والتفسخ، من الخارج عن طريق القوى العظمى، ومن الداخل نتيجة يقظة القوميات: هل كان من الواجب الحفاظ على وحدة هذه الإمبراطورية أم اقتسامها بين الكبار، خصوصاً وأن الأمم الصغيرة المستقلة اسمياً كانت موضوعة تحت حماية القوى العظمى؟ إن تعريفاً كهذا للمسألة الشرقية يجعلها تبتدئ

إذا من القرن الثامن عشر، لتنتهي مع زوال الإمبراطورية العثمانية عام 1923-1924م. إلا أن بعض المؤرخين يذهب إلى توسيع هذه المسألة ليجعلوا منها صراع حضارات بين الشرق والغرب.

من بين التعريفات المتعددة لهذه المسألة، هذا التعريف لـ Jacques Ancel : المسألة الشرقية هي في المقام الأول تاريخ نشوء الدول البلقانية، الذي كان أولاً تكوُّناً ثقافياً، ثم سياسياً وأخيراً إقليمياً. ومن ثم فالمسألة الشرقية هي تاريخ تدخل القوى الأوروبية لصالحها، حيث لم تتوصل الدبلوماسية الروسية، الإنكليزية والفرنسية عن التخلي عن الصيغ السائدة في القرن الثامن عشر، بل وحتى منذ زمن الصليبيين، ونعني بها "البحار الحرة"، "طريق الهند"، "الحماية الكاثوليكية". من هذا التعارض بين "الحضارة العثمانية" و"الحضارة البلقانية" نشأت المسألة الشرقية في شكلها المعاصر، أي الجهود المبذولة من قبل الشعوب، التي أصبحت واعية لتمييزها، للانتظام في دول ضمن أطر جغرافية محددة(4).

وبما أنه لا يخطر ببال التركي إطلاقاً بناء دولة عصرية، "لأن الحضارة العثمانية تبقى دائماً حضارة البدو"(5)، فإنه لم يعد هناك مسألة شرقية في آسيا، "فالتركي هو هناك في داره دون أي منازع"(6).

أما رينيه غروسيه فرأى أن المسألة الشرقية هي مشكلة العلاقات بين أوروبا وآسيا، وهي مشكلة كان يبيت بها دائماً في ساحة المعركة بشكل دوري. مشكلة ثقافية تقود أحياناً إلى تكوين بعض التوافقية الدينية، وأحياناً أخرى تقود إلى حروب دينية(7).

فرنان ويليه رأى أن التصفية المحتملة للإمبراطورية العثمانية شكّلت ابتداءً من القرن الثامن عشر جوهر المسألة الشرقية التقليدية، ولكن حتى الآن، لا يقصد إلا تصفيتها في أوروبا، فالغرب ما زال يجهل أو يتجاهل العالم العربي الواسع، الذي لا يزال الأتراك يحكمونه(8).

إدوارد دريو يختصر المسألة الشرقية على الشكل التالي: انسحاب الإسلام من أوروبا ومن آسيا من على جانبي البوسفور والدردينيل أدى إلى ولادة المسألة الشرقية. ويرى أن تاريخها هو بالضبط تاريخ تقدم الشعوب المجاورة على حساب الشعوب الإسلامية. هذا التاريخ يأخذ في أيامنا خصوصاً صيغة اقتصادية. إنها شكل من أشكال الصراع على الحياة حتى بين الشعوب التي تجمع بينها القرابة(9).

أما التعريف الأكثر ابتكاراً للمسألة الشرقية فقد وضعه Dimitre Kitsklis : المسألة الشرقية بالنسبة إليه هي صراع داخلي ضمن ما أسماه المنطقة الوسيطة. وهو مصطلح أطلقه على قارة أوراسيا. وفي خضم هذا الخلاف الداخلي تدخل الغرب لمصلحته. ويرى أن هذا الخلاف سببه الصراع بين الشعوب الرئيسية التي تقطنه بهدف توحيدته في ظل إمبراطورية مسكونية oecumenique. وتتميز هذه المنطقة الوسيطة بواقعة أنه منذ

آلاف السنين عمل كل شعب من شعوبها الرئيسية جاهداً لتوحيدها في ظل إمبراطورية مسكونية. وهكذا نرى هذه المنطقة محكومة على التوالي، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد، من قبل الإمبراطورية الفارسية، الإسكندر المقدوني الكبير اليونان البيزنطيين، العرب، المغول، العثمانيين الأتراك ومن ثم الروس. ويبدو شرقي البحر المتوسط خلال التاريخ كمركز لهذه المنطقة الوسيطة، حيث توافد إليه جميع الطامحين إلى إنشاء إمبراطورية موحدة شمولية. وتحديداً وخلال ألف وستمئة سنة كانت القسطنطينية عاصمة لهذا المركز. ويرى Kitsiks، مثل الكثيرين غيره، أن الأزمة الخطيرة التي عرفتتها الإمبراطورية العثمانية ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والتي أسماها الغربيون "المسألة الشرقية"، لم تتأت كما يتردد غالباً عن صراع ديني بين المسيحية والإسلام. ففي الواقع عرفت السلطنة في ذلك التاريخ أزمة اجتماعية شبيهة بتلك الحاصلة في الغرب. ولكن صادف أن البورجوازية العثمانية كانت أساساً من غير المسلمين وخصوصاً من الروم الأرثوذكس. إضافة إلى أنه في ظل هذه الإمبراطورية المتعددة القوميات فإن التقسيم الطبقي يتمثل إلى حد كبير مع تقسيم عرقي بين أتراك ويونانيين(10).

ويبقى Arnold Toynbee الوحيد الذي كتب أن "المسألة الشرقية المزعومة" هي في الواقع مسألة غربية، نجمت برأيه عن الخلل الذي تعرض له التوازن التقليدي للحضارة الإسلامية. وهو يعتبر أن الأفكار المسبقة قد لعبت دوراً كبيراً في مواقف القوى العظمى، ويرى أن هناك ثلاث طروحات خاطئة تحكمت في مسار المسألة الشرقية: إسلام مسيحية، آسيا- أوروبا، حضارة- بربرية(11).

### تطور المسألة الشرقية:

في الواقع، خلال القرن التاسع عشر ذروة عصرة النهضة الأوروبية، شكّلت أوروبا الغربية حضارة كونية، مركزية، مزدهرة، تسود العالم وتتعايش مع حضارات أقدم مستسلمة أو تحاول النهوض. ومنها الإمبراطورية العثمانية التي على النقيض من الإمبراطورية الإسبانية أو الهولندية وفيما بعد البريطانية، لم تفكر جلياً بسبل المنفعة الاقتصادية، وبقيت المعايير الاقتصادية بدائية، والتحفزية الحضارية طاغية(12). إن أساس الحكم بالنسبة للعثمانيين لا يقوم إلا على التقليد. وينحصر اهتمامهم في ضرورة تأمين موارد الدولة، ومهما تكن الظروف، حسب الطريقة التقليدية ونعني بها جباية الضرائب. باعتمادها هذا المبدأ، تستطيع القيام بذلك. ضمن هذا السياق على الدولائية وحدها أن تؤمن ثبات واستمرارية العلاقات بين الأفراد والسلطات العامة. على الدولة أن تحمي الاقتصاد، كما السياسة والحياة الثقافية. ضمن هكذا ثقافة لا يدخل مفهوم الملكية ضمن نطاق الإنتاج. الدولة هي مالكة الضرائب والعائدات المتعلقة بالأراضي، الصناعات الحرفية والتجارة، وبهذا المعنى تمتد ملكية الدولة على كامل نطاق سيادتها(13).

هل صحيح أن التسهيلات التجارية التي منحها الإمبراطورية العثمانية إلى دول أوروبا

الغربية، والتي عرفت باسم الامتيازات شكلت مدخلاً للاستعمار الاقتصادي الأوربي للإمبراطورية، مما أدى فيما بعد إلى انهيارها؟ أم أن ارتباط هذه الامتيازات بالضمانات المعطاة لمسيحي الإمبراطورية فيما عرف بالإصلاحات هي المسؤولة عن ذلك؟

وفي الواقع لأن النظام المالي والضريبي العثماني نظام حمائي تحفظي فهو يحمي التجار العثمانيين من المنافسة الأجنبية. ولكن ابتداء من القرن الثامن عشر اصطبغت التجارة في الشرق بالطابع الاستعماري، وذلك بتحويل الإمبراطورية العثمانية، التي لا تنتج السلع المصنعة وتصدر المواد الأولية، إلى زبون لدى الصناعة الأوربية (14). ومن بين أتباع السلطان الأوروبيين كان اليونانيون يتمتعون بامتياز خاص. فعلى الصعيد الثقافي والاقتصادي والإداري كانوا يتحكمون بالبلقان كلها. وكانت البحرية التركية تتألف بمعظمها من عناصر يونانية. وكان الهسبودار وممثلو الباب العالي في البلقان ينحدرون من الطبقات الأرستوقراطية اليونانية.

فالثورة البلقانية إذاً تهديد محيق ببنيات الإمبراطورية العثمانية.. ومن غير العجب إذاً أن يكون تصرف الأتراك هستيرياً (15) ولم تعرف عصبتهم الحدود عندما طلب العصاة العون من إخوانهم في الدين وعندئذ برز التعصب الديني الكامل واتهم المسلمون النصارى بالخيانة (16).

عند بداية القرن العشرين تقلصت الإمبراطورية العثمانية كثيراً، وانحسر حكمها عن شمال أفريقيا وعن هنغاريا ومعظم جنوب شرق أوروبا. أما في الشرق الأوسط المسلم، فوحدها الإمبراطورية العثمانية حافظت على استقلالها الفعلي. وقد بدت الإمبراطورية المحافظة على استقلالها غريبة عن عالمها المعاصر. لقد أصبحت في حقيقة الأمر كياناً استمر بعد انقضاء العصر الذي ينتمي إليه. لقد أصبحت الإمبراطورية بحاجة إلى تغيير سريع لتتمكن من مواجهة تحديات أوروبا العصرية فكرياً وصناعياً وعسكرياً. وأخذ المفكرون من مختلف الشعوب الناطقة بالتركية والناطقة بالعربية في الإمبراطورية يسعون لاكتشاف أو لإيجاد مفهوم لهويتهم الخاصة بهم. تحذوهم إلى ذلك العقيدة القومية التي سادت في أوروبا. وانبرى من بين هؤلاء قادة حزب تركيا الفتاة واضطلعوا بتحدي نقل الإمبراطورية العثمانية إلى القرن العشرين قبل أن يتوفر للعالم العصري الوقت اللازم لتدميرها. غير أن الفكرة القومية سيطرت حتى على السلطان وبيروقراطيته، الذين بدأوا بالأفعال لا بالأقوال، منذ نهاية القرن الثامن عشر، إلى التماثل أكثر فأكثر، أول الأمر مع الجماعة الدينية المسلمة، ومن ثم مع الجماعة الإثنية التركية. وهكذا تحول السلطان آخر المطاف إلى زعيم الملة الإسلامية. وتحت ضغط النزعة القومية جرى من ناحية ثانية تجزئة نظام الملة، أحد أعمدة نظام الحكم العثماني. فقد تجزأت الملة الأرثوذكسية إلى عدة ممل مسيحية. وذلك استجابة للمطالبات الإثنية، ففي عام 1875م ارتفع عدد الممل المسيحية إلى تسع، ليستمر في الصعود في السنوات اللاحقة (17). ومن النتائج الهامة لهذه الانفصالات القومية أن الإمبراطورية رأت نفسها وقد تحولت إلى إمبراطورية إسلامية في الغالب بعد أن فقدت غالبية مقاطعاتها المسيحية، خصوصاً بعد الحروب الغربية آخر

## قومية بلا أمة:

عندما عمدت أوروبا الغربية إلى زعزعة المجتمعات غير الأوروبية، من خلال دفعها إلى التطور بشكل غير متوازن، استجابة لمصالح وحاجات الخارج وليس تلبية للضرورات والمتغيرات المحلية، جعلت من هذه المجتمعات دولاً نامية أو متخلفة. وخلقت ظاهرة العالم الثالث. فما أن يبدأ المجتمع غير الأوروبي بالدوران في فلك مستعمره حتى يندفع نحو التغريب أملاً في الخلاص من التبعية. إذ يصبح النموذج الأوروبي بلا منازع الإطار الوحيد للتطور. وعندما تفشل عملية العودة إلى ما قبل التبعية لا يبقى إلا الانشقاق من داخل النظام. هذا المسار أدى باستانبول إلى عملية أوربة كاملة. أي تحررها من أوروبا عن طريق التكامل مع النظام الذي يمثلها، أي أوروبا. فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان الإصلاحيون مقتنعين بأن نظامهم أرقى بكثير من النظام الأوروبي. وظنوا أن انهيار إمبراطوريتهم يعود إلى تخلفهم التقني وفقدانهم للمهارات الحربية التي كانوا يملكونها في السابق.

الخطوة الأولى في أي عملية تغريب تعتمد على الفكرة التالية: أن نظامنا هو الأفضل، ولكن أوروبا هزمتنا لأنها تمتلك سلاحاً أفضل من سلاحنا. الحل هو إذاً بالأبغ غير شيئاً في نظامنا سوى اعتماد النظام العسكري والتقنيات الحربية المعتمدة في جيوش الدول الأوروبية من جهة، واستخدام الأشكال التنظيمية المدنية المعتمدة في تلك المجتمعات(18).

الخطوة الثانية في عملية التغريب تتلخص بالتالي: تحديث الجيش والتقليد الشكلي للبنيات التنظيمية لا تكفي. إذن يجب تحديث الإدارة(19). أما الخطوة الثالثة فتتمثل بوضع دستور للبلاد، وكان ذلك في 23 كانون الأول/ديسمبر 1876م. ولكن نظام الحكم في الإمبراطورية العثمانية كان قد أصبح نظاماً مضعفاً خارج الزمان والمكان في العالم الحديث، بدا محكوماً عليه بالزوال.

حتى العام 1908م كانت حكومة استانبول تعمل من أجل مواطنة عثمانية، وكان النقاش يدور حول الشكل الدستوري للدولة: هل يجب اعتماد النظام المركزي أو النظام اللامركزي، على الدولة أن تأخذ شكل دولة موحدة أم شكل دولة فدرالية، في ذلك العام تمكنت إحدى الجمعيات السرية التي ما لبثت أن أصبحت الفئة الكبرى ضمن مجموعة مختلطة، أطلقت على نفسها اسم جمعية الاتحاد والترقي، وعرفت أيضاً باسم حزب تركيا الفتاة وأطلقت على أعضائها تسمية الأتراك الفتية، تمكنت من أن تتحول إلى الحزب الحاكم في الإمبراطورية. ذلك أن عصابة الأتراك الفتية استولت على السلطة في القسطنطينية، وحكمت الإمبراطورية كوزراء في حكومة السلطان. لقد عزم الأتراك الفتية على تثبيت سلطتهم، ليس إزاء الأجانب فقط، بل إزاء مختلف الجماعات الأخرى التي تقطن الإمبراطورية. وكان هذا يتناقض مع ما تعهدوا به قبل استلامهم الحكم. فقد

نادى برنامجهم بالمساواة في الحقوق بين سائر الجماعات الدينية والإثنية واللغوية، المقيمة على أرض الإمبراطورية، ولكن ما أن تسلمت جمعية الاتحاد والترقي السلطة حتى لجأت إلى تأكيد هيمنة المسلمين الناطقين بالتركية على كل من سواهم (20). إن السبب في ذلك يعود برأينا إلى أن الأتراك الفتيان كانوا قوميين من دون أمة. وذلك لأسباب ثلاثة: أولاً: لأنه خلال التاريخ الطويل للإمبراطورية العثمانية، ولأسباب كثيرة ومتعددة، لم ينشأ قط شيء اسمه أمة عثمانية، ثانياً: في نطاق الإمبراطورية كثيراً ما نجد أن الناطقين بالتركية ليسوا من أصول تركية، ثالثاً: لقد أصبح موطن الشعوب التركية القديم، تركستان، في حوزة روسيا والصين، وأكثر من نصف الشعوب التركية الآسيوية تعيش إما هناك أو في أماكن أخرى خارج الإمبراطورية العثمانية "بحيث أن قيصر روسيا كان بوسعه أن يكون أحق من السلطان العثماني في إدعاء تمثيل من هم من أصل تركي" (21). لقد شكلت النظرية الطورانية الأساس الذي قامت عليه القومية التركية الوليدة، لدى الأتراك الشبان. "وكانت تعني توحيد الشعوب التركية تحت راية الخلافة العثمانية التي تظل أيضاً شعوباً إسلامية أخرى غير تركية" (22).

إلى جانب المعضلة القومية ظهرت المعضلة الدينية. لقد كان على بناء الجمهورية التركية الوليدة وحماة القومية الناشئة مواجهة المسألة الدينية بكل حدة. فالإسلام يشكل جزءاً من روح الشعب. ولكن القادة الجدد رأوا أن مؤسسات الإسلام تشكل عائقاً أمام تطور الوطن. فكيف نحرر هذا الأخير من الطوق الديني دون خيانة الروح؟ رداً على هذا التساؤل الذي من الصعب بمكان الإجابة عليه، تخلى الحكام الأتراك تدريجياً عن الإسلام لصالح التأقلم مع الحضارة الأوروبية ومحاربة أوروبا بسلاحها الخاص. فماذا يبقى للغرب أن يفعله في دولة متغربة بالكامل (23). في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر 1922م زالت الإمبراطورية العثمانية، في 29 تشرين الأول/أكتوبر عام 1923م تأسست الجمهورية التركية وعاصمتها أنقرة. وفي 3 آذار/مارس عام 1924م تم إلغاء الخلافة.

### العرب والأتراك:

أدى تقسيم رعايا الإمبراطورية العثمانية منذ بداية القرن السادس عشر عام 1516م بالتحديد، ضمن ما يسمى نظام الملة، إلى جعل المسلمون العرب في القرن التاسع عشر يتمثلون مع الملة التركية. وأصبحت كلمة تركي مرادفة لكلمة مسلم. ونتيجة لذلك فإن الإثنية العربية كانت قد اقتربت، شيئاً فشيئاً نحو العدم السياسي (24). وبالرغم من ولاء العرب المسلمين للإمبراطورية العثمانية ونزوعهم، حتى بداية القرن العشرين، للوحدة السياسية الدينية مع الأتراك المسلمين، فلا شك أنه كان هناك كرهاً عميقاً بين الجماعتين. فحول صياغة الهوية يقول غسان سلامة: إن المشروع القومي ذو حركة مزدوجة، فهو ناجم في آن من صوغ هوية، ومن صوغ غيرية. فالقوميون يبادرون إلى اعتبار أن أمتهم هي الأمة الحقيقية، وأنها كائنة منذ الأزل، وأنه ينبغي لها أن تثبت وجودها وذلك من تجسدها في دولة. صوغ الهوية يقضي برأيه بأن يتشابه أفراد الأمة الواحدة ويجتمعوا، لا لأنهم يشتركون في نفس الهوية وحسب، بل لأنهم مطالبون أيضاً بإعلاء هذه الهوية على

أي عنصر آخر يدخل في تكوين شخصيتهم السياسية. وأما صوغ الغيرية فيقوم على تأكيد الفروق مع الآخرين وتضخيمها، بحيث يتعذر تذليلها قبل أن يعاد إلى توظيفها في موقف عدائي بين الأمة وخصومه، يمدون جذوره إلى التاريخ السحيق (25). مع انهيار السلطنة العثمانية انخرطت نخب العالم العربي في هذه الحركة المزدوجة لتنتج "أمماً متعددة الصيغ"، فمنذ ظهورها تقاطعت القومية السورية مع مفهوم العروبة، ولم يتميز مفهوم القومية العربية، ومن ثم لم يندمج مع مفهوم القومية السورية إلا عند بداية القرن العشرين.

في الواقع يحفظ الشعب العربي في ذاكرته الجماعية تراثاً ثميناً، وهو ذكريات عصر كان فيه الخلفاء الأمويين والعباسيين يسودون عالماً عربياً إسلامياً، حيث قادتهم وحدتهم إلى أن يصبحوا أسياد حوض البحر المتوسط. هذا التصور للعظمة الماضية تتجاهل الاختلافات والتباينات الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت وما تزال سائدة. ووحدها تبقى الوحدة الضائعة، ضائعة بسبب خطأ الأتراك أولاً، والغرب ثانياً، والعرب أنفسهم فيما بعد. إن الشرق الأوسط العربي انبثق من قرارات اتخذها الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها. لقد اعتقدت الدول الأوروبية آنذاك أن باستطاعتها أن تغير آسيا الإسلامية في صميم أساسيات وجودها السياسي. وإذ حاولت الدول الأوروبية هذا التغيير فقد استخدمت نظام دول مصطنعة في الشرق الأوسط مما جعل منه منطقة لبلدان لم تصبح أمماً حتى يومنا هذا (26).

### الشرعية الأيديولوجية لوراثة الإمبراطورية العثمانية:

إن مسألة الشرعية الأيديولوجية، فيما يتعلق بموضوع وراثة الإمبراطورية العثمانية لم تعالج بالشكل الكافي. فواقعياً بانتهاء السلطنة تقاسم ممتلكاتها في الشرق الأوسط، كل من تركيا، فرنسا وبريطانيا. ويرى دافيد فرومكين إن هذا الاقتسام تم برأيه نتيجة لما أسماه تسوية أو صفقة عام 1922م. فإقامة دولة قومية تركية مقتصرة على الجزء الناطق بالتركية من الإمبراطورية المنحلة وخلق السلطان العثماني كانا نتيجة اقتراح بإجماع الأصوات في المجلس الوطني التركي يومي الأول والثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1922م (27). وحدود تركيا كانت نتيجة تفاهم مع الحلفاء خريف 1922م، الذي أعقبه معاهدة صلح بين الطرفين جرى التوقيع عليها في مدينة لوزان السويسرية في العام التالي. وتقاسمت بريطانيا وفرنسا ما تبقى من الممتلكات العثمانية السابقة في الشرق الأوسط بموجب الانتداب على سوريا ولبنان الذي حصلت عليه فرنسا من عصبة الأمم عام 1922م، والانتداب على فلسطين ومن ضمنها شرق الأردن الذي حصلت عليه بريطانيا تثبيتاً للانتداب تحكّم بموجبه ذلك البلد الذي خرج حديثاً إلى حيز الوجود، وأنشأت محمية في العراق بموجب معاهدتها التي عقدتها في العام نفسه مع هذا البلد الذي أوجدته وأجلست عليه الملك فيصل بن الحسين بعد أن طردته القوات الفرنسية من سوريا (28). وبموجب أحكام الانتداب على فلسطين لعام 1922م وضع شرق الأردن على الطريق ليشكل وجوداً سياسياً منفصلاً عن فلسطين، وتقرر أن يكون الأمير عبد الله بن الحسين على رأس هذا الكيان الجديد بصورة دائمة بموجب قرار اتخذ عام 1922م. وفي عام 1922م أجلست

بريطانيا الملك فؤاد الأول على عرش مصر، وفرضت اتفاقيات حدودية على ابن سعود أقيمت بموجبها الحدود بين المملكة العربية السعودية والعراق والكويت (29). وكانت معاهدة سيفر (10 آب/ أغسطس 1920م) وضعت سوريا كدولة مستقلة تحت الانتداب الفرنسي ريثما تصبح أهلاً للحكم الذاتي. وباشرت السلطات الفرنسية تقسيم سوريا إلى وحدات إدارية فرعية هي: لبنان الكبير، دمشق، حلب ودولة العلويين الواقعة شمالي لبنان بين العاصي والبحر الأبيض المتوسط، وعام 1922م قامت السلطات الفرنسية بإعلان دمشق وحلب ودولة العلويين دولة اتحادية سورية مقابل إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 الذي تحول إلى جمهورية عام 1926م (30).

عام 1922م تم بتّ مصير المسألتين الأساسيتين اللتان تختصران المسألة الشرقية: المسألة الأولى تتعلق برسم حدود روسيا السياسية في الشرق الأوسط، فقد رسم الحد الروسي في النهاية بمحاذاة سلسلة شمالية من الدول تمتد من تركيا إلى إيران وأفغانستان، والمسألة الثانية هي بت المصير النهائي للسلطنة العثمانية وتقاسم ممتلكاتها بين تركيا، فرنسا وبريطانيا. وتحقق للدولتين الأخيرتين ما أرادت أن تفعله منذ زمن طويل، أي أن تأخذ بأيديها المصائر السياسية لشعوب الشرق الأوسط. وهكذا فإن الحرب العالمية الأولى وضعت نهاية لمسألة الشرق الأوسط في أوروبا. وحلت فيما يخص الأوروبيين مسألة "ماذا ومن ينبغي أن يحل محل الإمبراطورية العثمانية". وكما حصل في كل مكان في العالم، أدى الاحتلال الأوروبي إلى تدمير البنى السياسية لأهالي البلاد الأصليين وإبدالها ببنى جديدة ذات أشكال أوروبية. والإدارة الحكومية في معظم الكرة الأرضية كانت على نمط أوروبي، وبموجب قوانين أوروبية، ووفقاً لمفاهيم أوروبية.

لقد قامت فرنسا وبريطانيا كل في منطقة نفوذها في الشرق الأوسط بإنشاء دول وتعيين أشخاص يحكمونها، ورسمت حدوداً فيما بينها. ولكن ومع ذلك يبدو أنه لا تزال حتى يومنا هذا قوى محلية ذات بأس في الشرق الأوسط. وقد ظهرت على ما يبدو قوى خارجية أيضاً غير متوافقة مع هذه الترتيبات، وقد تطيح بها. وقد كتب دافيد فرومكين بهذا الصدد: "إن بعض الخلافات، كالتى نجدها في أي مكان من العالم هي على الحكام والحدود، ولكن ما يميز الشرق الأوسط هو أن ثمة مطالب تطرح هي أكثر صلة بالجواهر، وهذه الخلافات لا تضع موضع البحث المساحات والحدود فحسب، بل تطرح أيضاً حق الوجود لبلدان انبثقت فوراً أو فيما بعد من القرارات الفرنسية والبريطانية التي اتخذت في أوائل العشرينات من هذا القرن، كالعراق وإسرائيل والأردن ولبنان. ولذلك لا يزال الشرق الأوسط حتى هذا الزمن من القرن العشرين، المنطقة التي تستمر تشهد بشيء من التكرار حروباً من أجل البقاء الوطني" (31).

### بلقنة الشرق الأوسط وانتشار فكرة الانضمامية:

إذا كانت الحرب العالمية الأولى وضعت نهاية لمسألة الشرق الأوسط في أوروبا، فإنها خلقت مسائل شرق أوسطية في الشرق الأوسط. إذ كيف تستطيع شعوب متنوعة أن تعيد



تجميع نفسها لخلق هويات سياسية جديدة لنفسها بعد انهيار نظام إمبراطوري طويل العهد اعتادت عليه؟ لقد اقترحت أوروبا في مطلع هذا القرن العشرين شكلاً للمنطقة بعد زوال الإمبراطورية العثمانية بإنشاء دول ناتجة عن ظروف تاريخية طارئة أكثر مما هي مبنية على قوميات محدودة ومتأصلة الجذور. فقد انتشرت النظرية الانضمامية (32) بشكل واسع خلال الحرب العالمية الأولى، مخلفة وراءها الكثير من المذابح والعذابات. وقامت الدول الأوروبية بتقديم الوعود البراقة والمجنونة إلى مختلف الطوائف والمجموعات في الإمبراطورية العثمانية، واعدت بإنشاء كيانات إقليمية خاصة بكل من الأمم الأرمنية، الكردية، الأشورية، اليهودية والعربية. وبنفس الوقت قامت هذه الدول ذاتها بتأجيج النزعات الطائفية الدينية والخصوصيات المحلية عن طريق خلق كيانات إدارية خاصة لمختلف الطوائف الدينية الإسلامية كالشيعة والدروز والعلويين (33).

في الواقع، خلال فترة الانتداب ارتكبت فرنسا وبريطانيا، نفس الخطأ الذي ارتكبه المجموعة الأوروبية تجاه الإمبراطورية العثمانية أثناء حقبة التنظيمات. لقد أرادت الدول المنتدبة بناء وطن عصري ديموقراطي مزروع بخلايا انعزالية داخل الجسم الاجتماعي والسياسي. هذه السياسة نصت عليها مختلف صكوك الانتداب الصادرة عن عصبة الأمم الداعية إلى احترام كل المؤسسات الطائفية القائمة (34).

كانت فترة الانتداب، بشكل عام، مواتية لانتشار النظرية الانضمامية، وأحياناً كثيرة إلى تعزيزها واستغلالها من قبل القوات المنتدبة، التي اعتمدت على الأقليات أحياناً، في مواجهة التحركات الوطنية الشعبية (35).

### الأناضول:

لقد كلفت عملية تغريب تركيا، أي محاولة جعلها غربية، ثمناً باهظاً جداً بعد عمليات الإذلال المتعددة الذي تعرض له الأتراك منذ عدة عقود، خسارة كل أراضي الإمبراطورية، التهديد اليوناني اللاحق بمساعدة الحلفاء (36)، وكذلك الضغوطات المنظمة من قبل الأرمن والأكراد. لقد كانت ردة الفعل عنيفة جداً، وكانت الضحية الأكراد، الأرمن، الأشوريون واليونان. إذ لم يخف الأتراك رغبتهم في التخلص نهائياً من هذه العناصر الغير قابلة للامتثال أو للتكامل ضمن نطاق دولة قومية عصرية مستحدثة، رغم أن الأكراد مثلاً يشكلون ربع الشعب التركي (37).

إن تحقيق كيانات إقليمية أرمنية، آشورية أو كردية يصادف صعوبات بالغة التعقيد. إذ أن هذه الجماعات قليلاً ما تشكل جماعات ديموغرافية متجانسة بالكامل، فهي موزعة جداً ومختلطة مع عناصر مختلفة أخرى. "فمناطق الأكراد هي المناطق الواقعة غرب إيران والجزأين الأعلى والأوسط من شرق العراق وشماله، والجزء الشرقي والجنوبي الشرقي من تركيا، والجزء الشمالي الشرقي من سوريا، إضافة إلى بعض الجيوب المتفرقة من الاتحاد السوفييتي السابق وشرق إيران وأفغانستان وبلوخستان وغرب تركيا وأواسطها. وعندما نقول جيوب فليس معنى ذلك أنها قليلة السكان، بل هي جيوب لما يحيط بها من

كثافة سكانية لغير الأكراد" (38). وعلى هذا يشكل تأكيد القومية الكردية مشكلة سياسية لثلاثة بلدان شرق أوسطية هي تركيا، العراق وإيران فاسم كردستان أو بلاد الأكراد لم يكن أبداً اسماً لدولة مستقلة معينة الحدود الجغرافية والسياسية يعيش بداخلها نوع من السكان متجانسين أو منتمين لأصل عرقي واحد، لذلك فإن تعيين حدود لكردستان، المناطق المطالب بها من قبل الأكراد، تعتبرها الدول القائمة جزءاً من التراث القومي لكل منها.

أما الأرمن، ومشروعهم الخاص لإعادة البناء القومي المتمثل بالعودة إلى الولايات الأرمنية تحت السيادة التركية الحالية، فإنهم يواجهون مأزقاً بنيوياً من الصعب بمكان تحقيقه. فمن وجهة نظر فكرة الوحدة الطورانية، أساس القومية التركية تشكل العقبة الأرمنية العارضة الدخيلة، على الصعيد العرقي، الحاملة لهوية قومية خاصة، غير مسلمة، واقعة عند ملتقى القوقاز ومتجهة سياسياً نحو الخصم الروسي ويجب أن تزال (39). في الواقع إن جماعة تركيا الفتاة ومن بعدهم أتاتورك عملوا على ترجيح الهوية الجنسية التركية وحدها في الدولة، وأزاحوا كل ما كان بوسعه أن يشكل عقبة في طريق ذلك.

وكان في النتيجة أن أصبحت أرمينيا السوفيتية المروسة الوطن القومي الأرمني الوحيد. ويرى J.P.Rovx أن الأرمن لم يهتفوا من الأناضول نتيجة لقيام أرمينيا سوفيانية، وإنما لأن القسم الأكبر من وطنهم القديم لم تعد مأهولة بهم. ويجب أن نعترف بأنهم شيدوا المحرقة التي أحرقوا عليها أنفسهم. وذلك تحديداً بوقوفهم بكل قواهم وبلا رحمة إلى جانب الروس في حربهم ضد الأتراك، الذين عاشوا معهم بتجانس خلال قرون، محققين بذلك فوائد جمة، هم الأعداء التاريخيين لبيزنطيا ولروما (40).

أما الطائفة الأشورية، وهي طائفة مسيحية، نجدها اليوم بصورة رئيسية في شمال العراق، تتحدر في أصولها القديمة إلى زمن آشوري العراق الأوائل. وهي منقسمة إلى قسمين: النسطوريون المتجمعون في الكنيسة الأشورية الشرقية، والكلدانيون المنشقون من النسطوريين والمتحدون بروما، أي كاثوليك منذ العام 1553 ومتجمعون في الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية.

حوالي القرن التاسع لجأ قسم كبير من الطوائف الأشورية إلى كردستان واستقروا فيها في منطقة هاكباري الجبلية، التي أصبحت إمارة هاكباري في العهد العثماني، يحكمها أمير كردي. خلال الحروب الروسية ضد الإمبراطورية العثمانية وقفت التنظيمات العسكرية الأشورية إلى جانب الروس ضد القوات العثمانية التركية والكردية. ونستطيع أن نتخيل بسهولة الانتقام والمجازر التي تعرض لها الأشوريين بعد رحيل القوات الروسية، بعد ثورة 1917م البلشفية، إن تخصيص شطر الهاكباري الذي كان يقطنه سابقا الأشوريون لتركيا عام 1925، قضى نهائياً على فكرة تكوين دولة آشورية صغيرة مستقلة فيه، وذلك رغم وعد بريطانيا القاطع عام 1917م بتكوين وطن قومي للأشوريين مستقل بهم على

أرض أجدادهم(41). وفي نهاية الحرب وطنت لندن هؤلاء الأثوريين في العراق الشمالي، حيث كانت بعض الجزر من هذه الطائفة موجودة من قبل(42).

### الشرق الأوسط العربي أو آسيا العربية:

تتحدث الأدبيات التاريخية عن أن فكرة سوريا الكبرى تعود إلى بداية الحرب العالمية الأولى وإنها تهدف إلى إنشاء دولة- مملكة، تضم تحت قيادتها الشريف حسين، كل من الجزيرة العربية، شرقي الأردن، سوريا، العراق ولبنان(43). وأن ضرورات الحرب في أوروبا الغربية دفعت بريطانيا إلى توقيع معاهدات مع فرنسا تهدف إلى تقاسم أراضي السلطنة العثمانية فيما بينها، بعد انتهاء الحرب، تحت شكل مناطق نفوذ. وسميت هذه المعاهدات باتفاقية سايكس بيكو، التي وافق عليها مجلسا الوزراء البريطاني والفرنسي في بداية شباط/ فبراير عام 1916، وأحييت بالسرية، ولم يتم الكشف عن مضمونها إلا بعد عامين. وتقول الأدبيات التاريخية: إن هذه الاتفاقيات السرية ضربت بعرض الحائط الاتفاقيات المعقودة بين المندوب السامي البريطاني السير مكماهون من جهة والشريف حسين من جهة أخرى(44). وهي الاتفاقيات التي عرفت باسم مراسلات حسين مكماهون الشهيرة، فما هي حقيقة هذه المراسلات؟

حسب كتاب دافيد فرومكين "سلام ما بعده سلام" الصادر عام 1992م في لندن(45)، يمكن تلخيص مراسلات حسين مكماهون على الشكل التالي: في مطلع عام 1915م، فوجئ مقر المعتمد البريطاني في القاهرة برسالة تلقاها من الشريف حسين، شريف مكة، يطالب فيها بأن تصبح آسيا العربية كلها تقريبا مملكة مستقلة تحت حكمه، فأرسل السير هنري مكماهون -المندوب السامي البريطاني في مصر- جواباً إليه قال فيه: إن بحث الحدود في الشرق الأوسط ينبغي تأجيله إلى ما بعد انتهاء الحرب. وفي 24 تشرين الأول/ أكتوبر 1915م، ورداً على رسالة ثانية من الشريف حسين، بعث مكماهون بجواب وافق فيها على أن ينال فيها العرب استقلالهم بعد الحرب، ولكن من جهة أخرى أشار إلى أن الحاجة تستدعي وجود مستشارين ومسؤولين أوروبيين لتأسيس إدارة للحكم في البلاد العربية، وأصرَّ على أن يكون هؤلاء المستشارون والمسؤولون بريطانيين حصراً. بعبارة أخرى ستكون أية مملكة عربية مستقلة في الشرق الأوسط، بعد الحرب محمية بريطانية. ورداً على سؤاله ما هي المناطق التي ستشملها المملكة العربية المستقلة المحمية من قبل بريطانيا، طالب مكماهون في رده بتقسيم الأراضي التي يطالب بها الحسين إلى أربع مناطق. وأوضح أن بريطانيا لا تستطيع أن ترتبط بتأييد مطالبة الحسين بأي منها. وطلب مكماهون من الحسين أن يتخلى عن مطالبته بالأرض الواقعة غربي مقاطعات دمشق وحلب وحمص وحماء، أي أن الأراضي التي لن يحصل عليها الحسين والعرب هي سواحل سوريا ولبنان وفلسطين، مع إمكانية رسم خط حدودي في مكان ما من الأردن الحالي. أما بالنسبة للجزء الشرقي من الشرق الأوسط الناطق بالعربية، أي ولايتي البصرة وبغداد في بلاد الرافدين، فقد قال: إن موقف بريطانيا الثابت ومصالحها تقتضي أن توجد ترتيبات إدارية خاصة لهاتين الولايتين. أما بشأن القسم الغربي، أي سوريا وفلسطين، فإن

بريطانيا تستطيع أن تقدم للحسين ضمانات تتعلق فقط بتلك المناطق التي يمكنها أن تتصرف فيها من دون إلحاق الضرر بمصالح حليفاتها فرنسا، التي كانت في ذلك الحين تدعي لنفسها تلك المناطق بكاملها. لم يبق إذن سوى شبه جزيرة العرب التي كانت آنذاك مقسمة بين عدد من الزعماء، والحسين واحد منهم، وفي ضمنهم أيضا ابن سعود، خصم الحسين، وذكر مكماهون في رسالته أنه لا يستطيع أن يعد الحسين بأي شيء يسيء إلى علاقات بريطانيا مع الزعماء العرب الآخرين. وبذلك لم تلزم بريطانيا نفسها البتة بتأييد مطالب الحسين في أي مكان(46).

إن اتفاقية سايكس-بيكو هي التي رسمت حدود الدول في الشرق الأوسط العربي، وبموجب حدود الدول في الشرق الأوسط العربي، وبموجب هذه الاتفاقية تحكم فرنسا لبنان الكبير وتمارس نفوذاً حصرياً في بقية سوريا وصولاً إلى الموصل. أما ولايتا البصرة وبغداد في بلاد الرافدين فهما من نصيب بريطانيا. أما في فلسطين، فتأخذ بريطانيا مرفأَي عكا وحيفا وتأخذ معها جزءاً من الأراضي تنشئ فوقه خطأً حديثاً يمتد من عكا وحيفا إلى بلاد الرافدين، أما بقية فلسطين فتخضع لنوع من الإدارة الدولية. يستنتج من كل ذلك أنه باستثناء فلسطين والمناطق التي تمارس فيها فرنسا أو بريطانيا حكماً مباشراً، كان مخططاً للشرق الأوسط أن يؤلف دولة عربية أو اتحاداً كونفدرالياً لدول عربية مستقلة اسمياً، ولكنها في الواقع مقسمة إلى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية، أما الشريف حسين وبقية الجمعيات السرية فقد كانوا يطالبون بدولة عربية موحدة، دولة مستقلة استقلالاً تاماً، وليس محمية أوروبية.

أدى إعلان ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز في 8 كانون الثاني/يناير عام 1926م، إلى القضاء نهائياً على إمكانية تحقيق مشروع سوريا الكبرى، وحاول العرش الهاشمي في العراق أن يستعيز عن فكرة سوريا الكبرى بتحقيق مشروع الهلال الخصيب، الذي يضم كل من العراق، شرقي الأردن، سوريا ولبنان. وقف في وجه هذه المحاولة كل من مصر، السعودية وتركيا(47). فتركيا لم تكن أبداً راغبة بوجود مملكة عربية قوية وغنية على حدودها، تتازعها الكراهية. أما مصر، فرداً على المشروع العراقي، أطلقت فكرة الجامعة العربية، الذي يدعو إلى عدم سيطرة دولة أو مجموعة من الدول على الآخرين، وجمع كل الدول العربية على قدم المساواة، واقتراح تعاون الجميع لتحقيق برنامج مشترك يكون الخطوة الأولى نحو اتحاد الدول العربية، ومن ثم تحقيق الوحدة العربية الشاملة. ورغم ذلك فإن الحكم الهاشمي في العراق والأردن لم يخف رغبته في تحقيق وحدة آسيا الإسلامية، ولكنهم كانوا دائماً يواجهون برفض الحكومات السورية المتعاقبة(48).

عام 1958م، وبعد فشل مشروع حلف بغداد، حصل انقلاب دموي في العراق، أطاح بالملكية العراقية، وقضى نهائياً على مشروع الهلال الخصيب.

### القضية الفلسطينية والعرب:

وجد العرب أنفسهم مدعويين، ولأول مرة في تاريخهم، مطلع القرن العشرين، للانتظام

في دول حديثة، مرتكزة على مبادئ ومفاهيم عربية عنهم نهائياً بنويماً، خصوصاً أن هذه "الشعوب" أو بالأصح هذه المجتمعات كانت تعيش بانسجام، وخلال قرون عدة مع حضارة كوزموبوليتية ولكنها أيضاً مسكونية أو شمولية بشكل جذري. لقد ربطت الظروف الدولية مصير العرب بلعبة السياسة الدولية، الغائبين عنها نهائياً وبنفس الوقت مدعوين للانضمام إليها. مهمة صعبة من جهة أخرى لأن شعوب هذه الدول العربية الحديثة كان عليها أن تتجابه مع أقلية أوروبية مجربة سوف تعيش بين ظهرانيها في فلسطين، إن زرع مجتمع يهودي مضطرب داخل خلايا المجتمع العربي سوف يزعزع توازن هذا المجتمع، (خمسة حروب خلال أقل من أربعين سنة، 1948، 1956، 196، 1973 و 1982م).

حصلت هذه الأقلية اليهودية على حصة الأسد من تركة الإمبراطورية العثمانية، وعندما أنشأت دولتها القومية تحولت اليهودية من دين سماوي شمولي إلى دين قومي مغلق، إن الخطر الناجم عن نجاح هذا النموذج في الشرق الأوسط يتمثل في أنه قد يشكل مثلاً يحتذى لبعض الأقليات الدينية- الإثنية، خصوصاً أن هذه الأقليات ترى أنها تملك حقوقاً أكثر جدية من حقوق اليهود، تؤهلها لإنشاء دولها الخاصة المبنية على أسس دينية- إثنية.

منذ نهاية القرن التاسع عشر نشطت حركة استيطانية يهودية في الأقاليم الفلسطينية التي يطالب بها الإسرائيليون بحجة حقوق تاريخية تعود إلى ألفي عام. وفي العام 1917م أعلنت الحكومة البريطانية عن رغبتها في إقامة وطن قومي للشعب اليهودي (49). ومع ذلك فقد وضع الانتداب البريطاني على فلسطين عام 1922م، حكومة لندن أمام ورطة كبرى، فهي لم تستطيع إعلان الدولة اليهودية بعد انتهاء الحرب وذلك بسبب الوعود المتضاربة والمتناقضة التي عقدتها مع كل من العرب من جهة والفرنسيين الذي كانوا يطالبون بنفوذ لهم في القدس من جهة ثانية.

### المعضلة اليهودية:

بعد عام 1939 تعقدت الأمور كثيراً في الأراضي الفلسطينية. فقد توجه الناجون من المذابح النازية الرهيبة بأنظارهم وآمالهم نحو أرض فلسطين الموعودة. ولقد كان من الطبيعي أن يرفض العرب الادعاءات اليهودية. ففي عام 1917م لم يكن اليهود يمثلون أكثر من 7% من سكان فلسطين (50). أما بقية اليهود فقد تركوا فلسطين منذ أكثر من ألفي سنة. لقد وجدت الحكومة البريطانية نفسها بين نارين: نار اليهود المطالبين بتنفيذ وعود 1917م من جهة، ونيران العرب الراضين لهجرة اليهود الكثيفة والذين لا يقرون لهم بأية حقوق تاريخية. (أكثر من نصف مليون مهاجر عام 1940م) (51).

في الأول من كانون الأول/ديسمبر عام 1947م صدقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على مشروع التقسيم القاضي بخلق دولتين مستقلتين في فلسطين؛ واحدة للعرب وأخرى

اليهود مع وضع مدينة القدس تحت إشراف الأمم المتحدة وخضوعها لإدارة دولية، على أن تشكل الكيانات الثلاث وحدة اقتصادية متكاملة. طبعاً نال القرار رضى اليهود ولكنه ومنذ اللحظة الأولى جُوبه برفض منهجي من العرب كافة.

في 15 أيار/مايو 1948م أنهى البريطانيون انتدابهم على فلسطين من طرف واحد وانسحبوا من البلاد (52). وفي ذات اليوم الذي انسحبت فيه القوات البريطانية تم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل واجتاحت كل جيوش البلاد العربية المحيطة الحدود. بعد ستة أشهر وجدت الدول العربية نفسها مجبرة على توقيع اتفاقيات الهدنة المفروضة عليها نتيجة المداخلات الدولية.

نستطيع الجزم بأن القوات البريطانية بانسحابها من فلسطين وبالطريقة التي تمت فيها، زلزلت الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. فمنذ العام 1948م وحتى يومنا هذا لا تزال هذه المنطقة من العالم تعيش حالة اضطراب متواصل وتعقيدات مترامية، تتفاقم يوماً بعد يوم. وذلك برأينا يعود إلى سببين أساسيين:

السبب الأول يعود إلى أن شعوب أوروبا الممزقة سببت لغالبية اليهود، وخلال قرون عديدة، جروحاً ليست لها مثيل. وللتعويض عن ذلك أنشأوا لهم كيان دولة ناقص البنیان. إذ أن الأراضي الإقليمية لهذه الدولة لا يعود لهم ولا للأوروبيين. وهو مرشح لأن يبقى موضع نزاع إلى ما لا نهاية. فهذا الكيان سوف يصبح مصدراً لا ينضب لإثارة المشاكل التي لا تنتهي. إنه فخ منصوب بإحكام، إذ ما من شيء يسمح بالاعتقاد بأن دولة تقوم على أساس عنصري ديني معزولة في محيطها، تستطيع أن تؤمن الحياة والاستقرار لمواطنيها. لقد تم إنشاء دولة إسرائيل تتويجاً لجهود الحركة الصهيونية، المؤسسة عام 1897م في مدينة بال السويسرية، والتي تضم أكثر من مليوني عضو عام 1948م (53). تشكل المنظمة الصهيونية العالمية اليوم مؤسسة مغلقة ذات طابع عرقي ديني، مهمتها الدفاع عن مصالح الأقليات اليهودية في بلاد الاستقبال. ولكنها تقوم أيضاً بتقديم الدعم الغير مشروط لمصالح الدولة العبرية (54). أما السبب الثاني فهو سبب منهجي، حيث إننا نبحت عن حلول سياسية وجغرافية لصراع هو في الجوهر والأساس، ولتاريخ اليوم، صراعاً عنصرياً ودينيّاً. ولقد أشار الرئيس اللبناني السابق شارل الحلو في مذكراته إلى أن المؤرخين في المستقبل لن يجدوا ما يسجلونه في هذا الصدد، "سوى محاولات سير كل من الأطراف باتجاه الآخر وسط تتابع العنف الموسمي وتردد المفاوضات" (55).

### انتقال أو تغيير وجهة المسألة الشرقية:

ما من شك أن من بين أخطر القضايا الدولية المعاصرة وأكثرها صعوبة نجد مسألة الشرق الأوسط المعاصرة، المتطابقة مع المسألة الشرقية القديمة والمنبثقة عنها في آن واحد. فمع انهيار الإمبراطورية العثمانية سلكت المسألة الشرقية وجهة أخرى، وأصبحت منذ ذلك الحين تتموضع، ليس في قلب البلقان، وإنما بين أنابيب النفط العراقية، السعودية، الإيرانية وقناة السويس، بين البحر الأبيض المتوسط، البحر الأحمر والخليج العربي. إن

القيمة الإستراتيجية الهامة التي تتمتع بها بلدان هذه الرقعة الجغرافية إضافة إلى أهميتها الاقتصادية المتنامية كانت قد ولدت بين المعسكر الأنكلوسكسوني والمعسكر الروسي صراعات مريرة طوال القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين (56). وبين الحربين العالميتين نجد أمامنا ثلاث قوى لها مصالح أساسية في الشرق الأوسط تعمل على حمايتها أو تطويرها: بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، وهناك قوى رابعة وهي الاتحاد السوفيتي تعمل على بناء مصالح لها في المنطقة (57).

لقد أثرت الحرب العالمية الثانية كثيراً وبعثت في علاقة الدول الأوروبية ببقية العالم. هذه العلاقة أصبحت محكومة باللين إن لم نقل بالتراخي. وأدى ضرورة تقديم التنازلات إلى التخلي عن سياسة الهيمنة والتسلط. أدت الأزمات الداخلية التي عرفتتها هذه الدول وخسارة النفوذ والهيبة نتيجة الصعوبات التي واجهتها في إدارة المستعمرات من جهة، وتحديث وتطوير آليات السيطرة والهيمنة من قبل دولتين ذو نظامين مختلفين ولكنهم سوف يقسمون العالم: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي من جهة ثانية إلى ما يمكن تسميته بإزالة الاستعمار.

بدأ نجم أوروبا بالأفول عام 1920م، وتسارعت وتيرته بعد عام 1945م مع تقسيم القارة الأوروبية ونزع الاستعمار في آسيا وأفريقيا، حيث استمرت التقسيمات العشوائية التي أقامتتها الدول المستعمرة هناك على شاكلة تقسيماتها القارية. بيد أن إزالة الاستعمار لم يقض على المشاكل المتولدة عنه. ترى هل انتهت رسالة أوروبا بعد خمس قرون من التوسع، مثلما حصل في الماضي مع غيرها من الحضارات الكبرى في التاريخ؟

لقد كان على القوى الأوروبية الانسحاب من الشرق الأوسط، تاركة وراءها كيانات سياسية هشة في مواجهة الظروف الدولية البالغة الصعوبة التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية. انتشار المذابح، الدعوات إلى الحروب المقدسة، الاضطرابات المتعلقة بمشروعية الدول، وقتية وعدم ثبات الحدود (58)، أياً من هذه الظواهر لم تتأت من الدرجة الأولى من الصراع العربي الإسرائيلي، ولم تظهر للمرة الأولى خلال العقود الخيرة الماضية. لقد انتعشت حتماً بقيام دولة إسرائيل، وتجددت بالتأكيد مع إزالة الاستعمار. إنها ترسم أطر مسألة شرقية معاصرة تستعيد الكثير من سمات المسألة الشرقية القديمة. إن قراءة جديدة لتطور المسألة الشرقية طوال القرن التاسع عشر تضع المسألة الشرقية المعاصرة في ما نعتقده إطارها الصحيح، أي بناء كيانات سياسية في الشرق الأوسط.

### الخلاصة:

خلص المفكر إدوارد سعيد في كتابه الشهير "الاستشراق"، إلى أن الشرق، كالغرب، فكرة، حيث التاريخ والمصطلح نشأوا في أوروبا ومن أجل أوروبا (59).

ليس هناك شرق، هناك شعوب، بلاد، أقاليم، مجتمعات، ثقافات عديدة ومتنوعة، وبعضها يملك خصائص مشتركة دائمة أو مرحلية. تحترم المركزية الأوروبية

(L'europa-centries me) اللاشعورية، في القرن التاسع عشر، الموجهة من قبل إيدولوجية كلية أو شمولية، الحضارات والشعوب خارج أوروبا. ولقد خلقت عن حق من خلال تطورها التاريخي وبنيتها المعاصرة قيماً إنسانية كونية. ولقد أسندت إلى هذه القيم ذات القواعد التحتية للثقافة الأوروبية، ولم تحتفظ ببعض الخصوصية إلا على مستوى سطحي جداً. أما المركزة الأوروبية الواعية والمؤدجة، في القرن العشرين، فقد ارتكبت الخطأ المعاكس. فالخصوصية الطاغية تفترض وجودها في كل المجالات الممكنة، والشكل الشمولي الكوني الوحيد الممكن هو المثال الأوروبي بكل جوانبه. فمن جهة يتم التأكيد على ضرورة تعميم هذه القيم، وفوراً من جهة ثانية يتم التأكيد على استحالة تحقيق ذلك لدى الشعوب الغير أوروبية، نتيجة لخصوصية هذه المجتمعات. ويؤدي ذلك بدوره إلى التخلي عن ضرورة نشر وتعميم هذه القيم الشمولية لصالح استمرار ثقافات مختلفة وخاضعة. وتتحول البلدان الشرقية إلى شهود متخلفين لماض سحيق مجيد حيث تستمر هذه الثقافات من خلال العيش في ظل أمجاد ذلك الماضي.

بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية بدأ العرب المسلمون الدوران في فلك الدول الأوروبية. وأملاً في التخلص من التبعية دخلوا في عملية تحديث وتغريب من خلال تبني الفكرة القومية. وعندما فشلت الحركة القومية الجريئة والمكسورة في محاولة العودة إلى ما قبل مرحلة التبعية، لم يبق إلا الانشقاق من داخل النظام العربي الإسلامي. أي إحياء الحنين إلى المؤسسة الإسلامية، ومجابهة الغرب بحدثة خاصة بالإسلام عن طريق إحياء مبادئ الإسلام وجعلها مبادئ حداثة (60).

من نافل القول أن ثورة العرب ضد الأتراك لم تستند إلى أي مطالب دينية. وعندما طالب الإنكليز الشريف حسين بن علي القيام بثورة ضد الأتراك تحت ستار المطالبة بالخلافة الإسلامية فاجئهم هذا الأخير بالمطالبة بإنشاء مملكة عربية (61). ومن ناقل القول أيضاً أنه بالرغم من كون غالبية سكان الشرق الأوسط يعتنقون ديانة مختلفة عن ديانة الفرنسيين والبريطانيين فإن المقاومة ضد الانتداب لم تأخذ أبداً أي طابع ديني. ولكن الأوروبيون ومنذ البداية لم يوفروا جهداً للتصدي لصعود التيار القومي، ووضعوا ثققتهم في أنظمة متسلطة على شعوب غنية بتاريخ عريق وحضارة نبيلة، وتركوا منذ أكثر من خمسين عاماً شعباً فلسطينياً بلا وطن، ولم يحافظوا على سيادة الدولة في لبنان، وقوضوا النظام الديمقراطي الوحيد في المنطقة العربية. وهاهم اليوم يجنون الثمار التي ساهموا في إنضاجها. لقد وجدوا أنفسهم في مواجهة التيارات الإسلامية الأصولية.

\*\*\*\*\*

## الهوامش

(\* باحث وأستاذ في الجامعة اللبنانية.



2- المصدر نفسه

3- المصدر نفسه

Jacques ANCEL; Manuel historique de la Question d'Orient,-4  
Delagrave, Paris,1923, PP301-304.

5- المصدر نفسه ص18

6- المصدر نفسه ص20

Rene GROSSET. Historie de la Question d'Orient, Payot, Paris, -7  
1948.

Fernand L'Hiullier; Fondements historiques des Prollemes - 8  
contemporains du Moyen- Orient, Paris, 1961.

Edward DRIAUD; La Question d'Orient, Paris, 1898. -9

10- Dimitre KITISIKIS; L'Emyire Ottoman; P.U.F, Paris, 1994,  
PP. 102-106.

- Arnold TOYNBEE; Le Monde ef l'Ocident; Descle et Brower;  
Paris, 1953.11

12- انظر بول كنيدي: نشوء وسقوط القوى العظمى، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت  
1998م ص29-35.

13- انظر

Fernand BRAUDEL; Cvilisation materielle; A.colin Paris, 1979,  
Tome 111, P 527 site.

Voir colloques interationaux du C.N.R.S; No 601 Economie et -14  
societes dans L'Empire ottomani; Robert mantran ; commerce  
maritime et economie, PP 292-295.

15- يروي هنري كيسنجر أنه في أحد الفصح، سنة 1821م، علّق البطريرك في  
استانبول مرة على باب الكاتدرائية مع العديد من البطارقة والكهنة الأرثوذكس: هنري  
كيسنجر، درب السلام الصعب، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، 1981 ص353  
انظر.

M.MARIAN; Toujours LA Question d'Orient, ESPRIT, mai - 16

17- حول هذا الموضوع راجع: عوني فرسخ: الأقليات في التاريخ العربي دار الريس للطباعة والنشر، بيروت، 1994، ص ص 199-215.

18- شملت هذه الإصلاحات بناء فرقة مشاه حديثة مختلفة تماماً عن باقي قطاعات الجيش العثماني التقليدية جرى تجهيزها وإعدادها وتنظيمها حسب الطريقة الغربية. تحت قيادة خبراء فرنسيين، إنكليز وألمان. وشملت أيضاً بناء مدارس لتعليم الهندسة والطب، حيث جرى تخريج أطباء ومهندسين وجراحين. وجرى أيضاً ترجمة العديد من المراجع الأجنبية إلى اللغة التركية

D. kitsikis; L'Emyire ottoman, oP.cit, P114.

19- وقد شمل ذلك بناء مدارس علمانية لا تتوجه فقط للعسكريين وإنما أيضاً للمدنيين، وإنشاء صحف دورية تصدر باللغة العثمانية وتدعو إلى الأفكار العلمانية.

Olivier Carre; L'islam et L'Etat; P.U.F. Paris, 1982, P 89.

وقد صرح السلطان محمود الثاني: ابتداء من اليوم، بالنسبة لي، لا يوجد مسلمين إلا في الجوامع، ولا مسيحيين إلا في الكنائس، ولا يهود إلا في الكنيس. خارج هذه الأماكن، أريد أن يتمتع كل فرد بنفس الحقوق وبحمائتي الأبوية.

Geoffrey Lewis; La Turquie, Marabout- Universite; Paris, 1968, P 42.

20- انظر بهذا الخصوص:

دايفيد فرومكين: سلام ما بعده سلام، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1992، ص ص 33-37.

21- المصدر نفسه ص 51.

22- محمد نور الدين، تركيا في الزمن المتحول، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1997م، ص 224.

23- كتب المؤرخ تويني عام 1952م ما يلي: إن الشعب التركي، وبتحريض من أتاتورك، قدم خدمة كبرى للعالم الإسلامي عندما لجأ إلى حل "المسألة الغربية" المفروضة على الجميع، بتثنية، بدون تحفظ، الأفكار الغربية الحديثة والفكرة القومية الغربية.. الخ.

A. TOYNBEE; Le Monde et L'Occident. P 106.

24- انظر بهذا الخصوص:

Maxim Rodinson; La fascination de L' Islam, Maspero, Paris, 1980.

غسان سلامه: الوحدة العربية موت أم تحول.

25- المسألة القومية على مشارف الألف الثالث لدار النهار، بيروت، 1998م، ص130.

26- يصف السير مارك سايكس العرب "بأنهم قوم يريدون الاعتراف بوحدتهم الجوهرية، ولكن فقط كممثل أعلى أما من الناحية العملية فإن هذه الوحدة لن تتسجم مع سجيتهم القومية. إن العرب ليست لديهم الروح القومية بالمعنى الذي نفهمه، ولكن لديهم شعور بالكبرياء العرقية، وهو لا يقل جودة عن الروح القومية، إنهم سيكتفون بإتحاد كونفدرالي لدول عربية وبرعاية أمير عربي".

دافيد فرومكين: سلام ما بعده سلام. ص216-217.

27- دفيد فرومكين: سلام ما بعده سلام. ولادة الشرق الأوسط، بيروت، شركة رياض الرئيس، 1992م، ص628.

28- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ص782.

29- دافيد فرومكين: سلام ما بعده سلام، ص629.

30- المصدر نفسه.

31- كارل بروكلمان، ص782.

32- الانضمامية نظرية سياسية نادى بها الوطنيون الإيطاليون بعد عام 1870م، غايتها ضم المناطق التي يسكنها أبناء جنسهم ولغتهم، وكانت خاضعة لدول أجنبية.

Edmond RABBATH; LA formation historique du Liban - 33  
Politique.

انظر أيضا جورج قرم، المجتمعات المتعددة الأديان.

34- تبقى المواد 6، 8، 9، 10 من صك الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وكل نصوص الانتداب والاتفاقيات البريطانية مع العراق وشرق الأردن على ضرورة الحفاظ على مختلف قوانين الأحوال الشخصية، صيانة الأموال الدينية أي الأوقاف والحفاظ على الطريقة التقليدية لإدارة هذه الأموال.. الخ.

35- بروكلمان: سلام ما بعده سلام. ص786.

36- لاحظ قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط " أن احتلال إزمير من قبل اليونانيين أهاج روحاً وطنية تركية لعلها أكثر مطابقة للحقيقة من أي روح وطنية

استطاعت الحرب أن تستثيرها". المصدر نفسه ص478.

37- حسب هادي العلوي: أصل الأكراد والأيديولوجيا القومية، الأقليات في العالم العربي، المركز العربي للمعلومات، أيار 1994م، ص33.

38- حسن الأمين، الأقليات في العالم العربي ص40.

39- انظر لوران وآني شابري، سياسات وأقليات في الشرق الأدنى، الأسباب المؤدية للانفجار، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م ص303-314.

- Jean- Pierre Roux; Histoire des Turcs, Fayard, Paris. 1984, PP 306-307.40

41- لوران وآني شابري، سياسات وأقليات في الشرق الأدنى، ص372-373.

42- في الأناضول نفسها، تتحدث الأدبيات التاريخية عن محاولة قيام إمارة يونانية، إمارة أرمنية وإمارة كردية. انظر J.P.Roux; Histoire des Turcs ويتحدث T.JUVARA في كتابه الشهير الصادر عام 1914م، مئة خطة أو مشروع لتقسيم تركيا. يتحدث عن مشروع لتقسيم القسطنطينية نفسها. في الصفحات 436 - 438. أما دافيد فرومكين في كتابه سلام ما بعده سلام. فيقول أن لويد جورج، رئيس الوزراء البريطاني، كان في مطلع عام 1919 م محبذا لخطة تحصل بموجبها الولايات المتحدة على القسطنطينية وأرمينيا، وتأخذ اليونان جيباً مركزه إزمير، وما تبقى من البلاد تتقاسمه فرنسا وإيطاليا، فتأخذ فرنسا الجزء الشمالي وإيطاليا الجزء الجنوبي، دافيد فرومكين، سلام ما بعده سلام. ص477.

-43 H. Flory et R.Mantran; Les regimes Politique des pays orabes. P.J.F,Paris, 1968, P395.

44- المصدر نفسه.

45- دافيد فرومكين، سلام ما بعده سلام، ص196 - 207.

46- وفقا لخلاصة نشرت في "النشرة العربية" العدد رقم 15 بتاريخ 18 حزيران 1916م، وهي نشرة سرية تعد لإطلاع القادة العسكريين والسياسيين ورؤساء المخابرات البريطانيين، كانت نتيجة المراسلات أن حكومة جلالته أبدت استعدادا لتشجيع الاستقلال في آسيا الناطقة باللغة العربية، ولكنها رفضت إلزام نفسها في ما يتعلق بأشكال الحكومات التي ستقام في المنطقة أو الحدود الدقيقة. المصدر نفسه ص206.

-47 Flory et Mantran; Les regimes politique des pays arabes, P195.

48- المصدر نفسه.

-49 Philippe DAUMAS; Lidan, Palestine, Promesses et Mensonges de L'Occident, Paris, L'Harmattan, 1977, P117.

-50 Jean Pierre ALEM; Le Proche- Orient arabe, Paris, P.U.F. 1982. P11.

51- المصدر نفسه ص13.

-52 Roger CERE; Entre La guerre et La Paix; 1945-1949, Paris, P.U.F. 1970, PP 88-90.

Marcel MERLE; Socieolgie des Relation internationales, Paris, -53 P.U.F. 1982. P186.

54- لا- يزال حتى اليوم 5/4 الطائفة اليهودية في العالم يعيشون خارج حدود دولة إسرائيل. المصدر نفسه ص187.

-55 Charles Helov; Memoires 1964-1965, Librairie catholique, Beirut, 1984, P52.

56- كتب دافيد فرومكيني: "بسبب روسيا كلياً أو جزئياً شرعت بريطانيا بإنشاء تحالفاً بريطانياً مع العالم الإسلامي. وبسبب روسيا قررت بريطانيا وفرنسا احتلال الشرق الأوسط واقتسامه. وبسبب روسيا أعلنت وزارة الخارجية البريطانية جهاراً تأييد بريطانيا لإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين. ثم للسبب نفسه شعر عدد كبير من المسؤولين البريطانيين بعد الحرب أن بريطانيا مضطرة لأن تشكل حاجزاً في الشرق الأوسط لصد الحملة البلشفية".

دافيد فرومكين، سلام ما بعده سلام. ص15.

57- إن دهاء حكم روسيا قادهم إلى إعطاء روسيا تسمية غير جغرافية، اتحاد فدرالي سوفياتي قابل للتوسع في العالم بأسره. انظر بهذا الخصوص:

Andre FONTAINE; 1- Histoire de la guerre froide, Paris, Fayard, 1965.

2- L'un sons L'autre.

58- حول هذا الموضوع انظر:

ناجي أبي عاد وميشيل جرنيون، النزاع وعدم الاستقرار في الشرق الأوسط، بيروت، الأهلية، 1999م.

-59 Edward Said; L'Orientalis me, l'oruiet cree par L'Occedent,

Seuil, Paris, 1980.

60- يرى صموئيل هنتنغتون في كتابه الشهير والمثير للجدل "صراع الحضارات" أن "الهدف كان ليس تحديث الإسلام وإنما أسلمة التحديث".

صموئيل هنتنغتون، صراع الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، مصراتة، 1999م، ص 191.

61- حول هذا الموضوع بالتفصيل الدقيق انظر: دافيد فرومكين: سلام ما بعده سلام، مرجع سابق.